{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَجِيبُواْ للّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ}

الواقع والمشروع والمبادرة

عبد الرحمان السالمي

تشير الآية الكريمة التي جاءت شعاراً للعدد العاشر ومحوره إلى طرفَي المعادلة: **المشروع، مشروع الحياة الحرة والكريمة والإنسانية.**

وضرورة المبادرة بالاستجابة للمشروع بما يضع زمام الأمور في أيدي المؤمنين والصالحين. يقول علماء فقه اللغة القرآنية القُدامى إنّ الأدوات إذا وعسى ولعل، تفيد في القرآنِ بخاصةٍ التحقُّق وليس التشكُّك أوِ الاحتمال. ولذلك تصبح منظومة الحياة القرآنية مكوَّنة من المشروع الإلهي، الذي يُخاطبُ به الذين آمنوا، والطلبُ منهم أن يبادروا للقيام على المشروع وتحقيقه، ثم هذا النّهج الذي يتضمنه المشروع الجليل لحياةٍ إنسانيةٍ كبرى وعظيمة.

ولكي يكونَ واضحاً منذ البداية ما المقصودُ بالمسألة، ذكر القرآن أنَّ المخاطَب بالمشروع إنما هم المؤمنون. وليس ذلك على سبيل الاستحثاث وحسْب، بل باعتبار أنّ المبادرة لتحقيق المشروع إنما هي من مقتضيات الإيمان. فالإيمانُ بالله والتصديقُ لرسوله -صلى الله عليه و سلم- تأسيسٌ يقامُ عليه البنيانُ والعمران، ثم تأتي المبادرةُ لتحقيق النهج للحياة الصالحة. فالمؤمن صاحبُ رسالةٍ تُجاه نفسه ومجتمعه، وتُجاه العالم الأوسع. واقتصارُ الأمر على النفس حريٌّ أن ينجيه بالمعنى الفردي القائم على الإيمان وتأدية الأركانِ. بيد أنّ المشروع الاجتماعيَّ كفيلٌ بتجاوُز النجاة الفردية إلى النجاة الجَماعية، ولن يحصُل ذلك إلاّ بالمبادرة من جانب الأفراد والجماعات في صفوف المؤمنين: (كنتم خير أمةٍ أُخرجت للناس، تأمرون بالمعروف وتنهَون عن المنكر وتؤمنون بالله).

هنا تقوم الخيريةُ على العلاقة بالنّاس. الإيمانُ بالله –عزّوجلَّ- هو المنطلقُ الذي دفع إلى المبادرة، أو إلى القيام بتلك الرسالة الكبرى.

والواقعُ أنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في المجتمع الإسلامي وخارجه، هو الذي يحدّد المعالمَ الكبرى لمبادرة الخير تلك، فمبادرةُ الحياة هي مبادرةُ الخير، ومبادرةُ الخير مضمونها: عملُ المعروف وطلبُهُ تُجاه المسلمين وتُجاه العالم، والعملُ على أن لا يسودَ المنكرُ والشرُّ لا في مجتمعات المسلمين، ولا في العالم. هذا الأمرُ أو هذا الترابُط بين الإيمان والمشروع والمبادرة واضحٌ منذ السُوَر القرآنية الأولى: (والعصر، إنّ الإنسانَ

لفي خَسْـر، إلاّـ الـذين آمنـوا وعملـوا الصالحـات، وتواصَـوا بـالحقّ وتواصَـوا بـالصبر). فـالمؤمن لاـ تتوقّـف مهمتُهُ عنـد الاسـتقامة بالإيمـان، بـل تتواصَلُ بعمل الصالحات، وبأن يسـعى تجـاه الآخـرين من أجل الحـقّ والصـبر على نهجـه لتغييرِ المسـارِ من أجل الخير والعدالة والحياة الإنسانية الكريمة والمستقيمة والمستمرة ازدهاراً وإعماراً.

بعـد الإيمان إذن هناك عـدة احتِمالات: احتمالُ الاكتفاء بالنجاة الفردية، واحتمالُ المبادرة لإنشـاءِ مجتمـع المعروف وعـالم المعروف، واحتمـالُ المُضـيّ في نهـجٍ يسـاوِرُهُ الخطـأ والخَطَلُ لـدوافع فردية أو فئوية. في الاحتمال الأول تـذكّرنا الآياتُ الكريمةُ بأنّ تلك القناعة وذاك الاكتفـاء ليس مـن شـأن المـؤمنين ولا من شـأن الصالحين المُصـلحين: (ولتجـدنَّهم أحرصَ النـاس على حيـاة)، أي حيـاة. الحيـاة التـي لاـ تتضـمنُ أملاًـ ولا طموحاً ولا سـعياً للتغيير باتجاه الأفضل. ولا يمكنُ اعتبارُ ذلك طبعاً شراً من الشرّ، لكنّ الخيرية منتفيةٌ لأنه لا دعوة في هذا المسلك ولا سعيَ من أي نوعٍ لكي يتجاوزَ الإيمانُ بابَ الدّارِ إلى المجتمع الأوسع. وفي الاحتمـالِ الثـاني: المبـادرة الخيرّة تتحققُ دعوةُ الخير ويتحققُ نهجُه. وليسِ معنى ذلـك أنّ احتمـال الخطـأ في هـذا النوع من المبـادرات غير وارد، لكنه يبقى عُرضـةً للتصحيح والتسديد بما ذكرهُ القرآنُ تواصٍ بالحقّ وتواصٍ بالصبر. والتواصي بالصبر إنما هو طلبٌ بالاسـتمرار في نهـج الخير رغم الصـعوبات والشدائـد. الصـعوبات الناجمـة عن عمـل الخير، والصــعوبات الناجمــة عــن التصــدّي للمنكر ونهْي أهلــه أو مرتكـبيه عن الإصرار على الخطأ والإنـذار بتحمُّل نتائجه. فعندنا من جهةٍ الخيرُ القائمُ، وعندنا من جهةٍ أُخرى المسؤولية عن التسديد والتصحيح بتوفيق الله سبحانه، وبإرادة التحققِ والالتزام.

ويبقى الاحتمالُ الثالثُ: احتمالُ السير في النهج السلبي أو المُخطِئ، وهذا الاحتمالُ يَردُ بالنسـبة للأفراد والفئـات، ولا يَردُ بالنسـبة لجماعـة المؤمنين أو لأمتِهم. وهنـا يكونُ على الجماعـة الوقوفُ في وجهِ أولئك الذين يسيئون إلى التزامها وإلى عالم الخير الذي تسـعى لتحقيقه. فالالتزامُ مسؤوليةٌ كبرى تُجاه النفس وتُجاه الآخرِ المؤمن وغير المؤمن. أمّا غير المؤمن فالالـتزامُ تُجـاهه الـدعوةُ بالحُسـنى، وإيضـاح النهـج السـليم. وأمّا المؤمنُ المُخطئ فالالـتزامُ تُجـاهَهُ وتُجـاه الإسـلام بالتسديـد والتصـحيح أو نتحمّـل مسؤوليـاتٍ كـبرى تُجـاه الإسلام الذي يجري تجاهُل دعوته وتجاهُل نهجه.

والحقُّ أنّ ما نعانيه اليومَ يتراوحُ بين الاحتمالين الأول والثالث. هناك مَنْ لا يرى ضرورةً ولا إمكانيةً للاندفاع في نهج الإحياء والحياة الحرة والكريمة والإنسانية. وهذا الأمر يعني تضاؤل تأثير نهج الحياة الإسلامية في مجتمعات المسلمين وفي الخارج. والاحتمالُ الآخرُ الذي نُعاني منه: إعراض فئاتٍ من المسلمين عن نهج الخير والحقّ والحياة لصالحِ نوازعِ وأهواء وأفكار وممارسات لا تخدمُ قضايا أمّتنا بالداخل والخارج: (ولا تتبعوا السُبُل فتفرَّق بكم عن سبيلِه). وإذا لم يكن من حقّ أحدٍ أن يتسبب في غرق السفينة، مسار الأمة، التي ذكرها رسولُ الله -صلواتُ الله وسلامُهُ عليه- في حديث السفينة المشهور، فإنّ من واجبِ أتباع نهج الحياة والإحياء من المؤمنين "أن يأخذوا على أيديهم" لكي ينجوا وننجوَ جميعاً، وينتصر نهجُ الحياة، الذي أمرنا الله –سبحانه-، وأمرنا رسولُه -صلواتُ الله وسلامُهُ

عليه-، بالاستجابة له.